# نبات الظل

غرفة عتيقة بكل ما فيها؛ تصميمها، أخشابها، سجادها العجمي القديم، سريرها ذو الأعمدة، مصباحها المعلق في السقف. . عندما أدخل غرفة جدتي أشم عبقاً فريداً قديماً، وأنا عاشقة متيمة بكل ما هو عتيق، قديم في عمر جدتي.

أعشق حكاياتها القديمة، إنها مثل التاريخ تستفيد منه كلما عرفته أكثر وكلما أبحرت فيه، فالقدم يزيد من قيمة الأشياء ويرفع أثمانها.

بعد رحيل أبي ثم أمي، عشتُ مع جدتي، لم يكن لي سواها، وهي تستحق كل الحب، جديرة بالقرب، كانت أمي الفتاة الوحيدة لها بالإضافة إلى ولدين آخرين، لم يكونا يزورانها كثيراً، لم تكن تكترث، قالت لي يوماً: أولادي تشغلهم همومهم. . وترعاهم زوجاتهم. . جذورهم في بيتي ولكن امتدادهم خارج النافذة. . أسقيهم. . أمنحهم الحياة. . ولكنني لا أستفيد بظلهم ولا عطرهم. . الظل يا صغيرتي القريبة للزوجة ولأولادهم.

حكاياتها لا تنتهي، تاريخ لا ينقطع، حدثتني كثيراً عن أختها الوحيدة الراحلة، وكيف عاندت قوانين الميراث زوجة أبيها الراحل.

قالت: تزوجت أختي مرتين.. في المرة الأولى رحل الزوج ـ فجأة ـ وترك خلفه أختي أرملة وحيدة بلا أطفال.. وثروة جيدة.. تزوجت للمرة الثانية طمعاً في أمومة تمنحها الخلود. لم يتحقق لها ما أرادت ـ رحلت فجأة ـ وتركت خلفها زوجاً وحيداً بلا أطفال، وثروة جيدة.. حسب قوانين الميراث ذهبت الثروة كلها لي ولزوجها مناصفة.. أما شقيقي الوحيد من أبي الراحل.. فلم يأخذ شيئاً.

سكتت وكأنها تتذكر أمراً ما..

: تزوج أبي قبل موته من فتاة في عمر الربيع.. اجتمع الربيع بالخريف من أجل عيون طفل ذكر.. رحل الخريف قبل أن يرى حلمه النور.. وعندما أدركت زوجة أبي أن طفلها الذكر لن يرث شيئاً من ثروة أختي الراحلة.. تحولت إلى رياح عاتية.. حملت الحلم الرضيع ورحلت.. اختفتْ.. ما زال أخي في عيني طفلاً رضيعاً.

سكتت لحظة، ابتسمت: لو أنجبت زوجة أبي الحسناء فتاة لحصدت السدس من الثروة.. البنات في عائلتنا دائماً يكسبن.

كانت جدتي تعتني بنبات ظل صغير لا يغادر غرفتها، تحبه كثيراً، تمنحه وقتها، تحكي له، تبوح بأسرارها، فهو في رأي جدتي روح حية، يشعر، يفرح ويحزن، يزهر ويذبل. وضعته قريباً من

سريرها، قالت لي يوماً: هذا النبات طويل العمر.. معطاء.. كل ما يحتاج إليه القليل من الماء فيمنح عطراً يملأ المكان.

رحلت جدتي الغالية وتركتني، قبل أن ترحل أوصتني كثيراً بنبات الظل، كلماتها لا أنساها: اهتمي بالنبات كثيراً.. إياك أن تفرطي فيه مهما حدث.. فلقد كان سري.. امنحيه أسرارك.. لا تخافي.. فهو وفي مثلك تماماً.. كتوم.. إذا منحك سراً، إياك أن تبوحي به.

بعد رحيلها باع أولادها كل شيء؛ البيت الكبير، أثاث غرفتها العتيق، سجادها العجمي القديم، مجوهراتها النادرة، ذكرياتها الغالية ـ باعوها ـ باعوا جدتي.

أغلقوا بابها إلى الأبد، ذهبت هي وبقي الأحياء يتحكمون في كل ما يخص الأموات، بل يمسحون أحياناً ما تركوه من ذكرى.

عدت إلى شقة أبي وأمي، كل شيء كما هو، لم أغير شيئاً فأنا أحترم الذكرى، وأعرف أن هذا البيت عاش فيه الحب أعواماً طويلة، لم أنسهم يوماً.

أضفت إلى البيت بعضاً من ذكريات الجدة، حملت معي نبات الظل الغالي، رائحة الجدة وعطرها الباقي، حملت صورها، قطعاً من

أثاثها القديم يحمل العتاقة التي أعشقها، ما حصلت عليه كان بالنسبة لي كل شيء.

علّقت الصور على الحائط، تأملتها، كم هي جميلة، لن أحركها أبداً، ستبقين يا جدتي الحبيبة، من يحترم الذكريات لابد أن يلتقي بمن يحترم ذكراه.

عملي مهندسة ديكور يستغرق وقتي صباحاً، والليل ملك للذكريات. وضعت النبات إلى جوار سريري، وجدتني أبوح له كل ليلة، يحمل أسراري، يحمل أحزاني وحنيني إلى جدتي، أتحسس أوراقه، أُقبِّلها وكأنني أُقبِّل يد جدتي، فلقد لامست أصابعها هذه الأوراق من قبل. رغم قسوة الذكريات أحياناً، كان ينتظرني، تمنحه آلامك، فيمنحك عطراً هادئاً رائعاً يملأ المكان، دائماً يمنح الأفضل، إنه الشيء الوحيد الوفي الباقي من الجدة، أخذوا كل شيء، وتركوا أغلى شيء، إنهم لا يقدرون الوفاء.

ما هذا ! ورقة صفراء ! علامة الحزن ورمز الرحيل، لابد أنني أثقلت عليك، لو كنت تبوح لقلت الكثير، لابد أن أنقله إلى وعاء أكبر لكي أُتيح للجذور المزيد من الامتداد، اشتريت وعاءً جميلاً يليق به، أخرجته بحرص شديد، وبينما أنا أنقله من مكانه، اصطدمت أصابعي بشيء صلب، ما هذا ؟!

أمسكته بين يدي وأنا لا أصدق ! إنه هو، خاتم جدتي الماسي، حجر كبير عتيق من الماس الحر، كم كنت أعشق هذا الخاتم، أخبرتنا الجدة إنها باعته، ولكنها أهدته لنبات الظل، هذا النبات الذي لم يهتم به أحد سواي، لقد باح النبات بسر، أعطته الجدة شيئاً فرده لي، أدرك أنني أحبه كما أحبته جدتي من قبل، كان كريماً معي، أهديته حباً صادقاً، فأهداني الماس، احتفظ بالماس لقلب وفي.

قَبَّلت أوراقه، وشكرت هديته، أدركت أنه يشعر بي ويحدثني همساً، سمعته، شكراً يا نبات الظل، منحتني سراً، وكما أوصتني جدتي؛ لن أبوح بأسرارك أبداً.